# التفاوت في التراجم الأدبية بين المادة و المكانة
# مشاهير يتيمة الدهر للثعالبي أنموذجا

د.نبيل مزوار ، جامعة الوادي

الملخص :

يلاحظ الدارس لكتاب يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر لأبي منصور الثعالبي تفاوتا ظاهرا في مقدار الترجمة بين علم و آخر ، ففي الوقت الذي أسال فيه المؤلف مدادا غزيرا في بعض الترجمات حتى ربت عن مائة وأربعين صفحة ، كان قلمه بالمقابل شحيحا في غيرها ، إذ لم تتجاوز ترجمته لها السطرين ، مع وفرة المادة لتناوله للمعاصرين له ، والأكثر من ذلك أنهم أعلام القرن الرابع الهجري ، و الدليل على ذلك حضور من قصرت تراجمهم في مصادر عاصرته فضلا عن المتأخرة عنه .

ويحاول هذا المقال الوقوف عند أهم الطبقات التي خصها الثعالبي بعنايته من الشعراء في ذلك الكتاب النفيس ، ودواعي تمييزه لها، وإطالته فيها ،علاوة عما ذكر من عناصر الترجمة الأدبية.

Summary:

The analyst of the book (YATIMATO ADDAHRI FI MAHASSEN AHLI AL ASSR) "the Era's orphan in the beauties of the people of the epoch" for Abu Mansour al-Thaalibi observes a clear difference in the amount of biography between one scholar and another. While I asks the author a massive information in some biographies until they had a hundred and forty pages, his pen, in contrast, was scarce in others which did not exceed two lines, in spite of the available material to be addressed to his contemporaries, and more than that, they are the scholars of the fourth century AH, and the evidence of that is the presence of the shortened biographies in the sources of his contemporaries as well as the late ones.

This article tries to shed light on the most important classes of poets that Thaalibi singled out with care in that precious book, and of distinction as well as extending of them, in addition to the literary translation elements.

تمهيد

تختلف كتب التراجم باختلاف بواعث تأليفها ، وغايات مؤلفها ؛ فمنها ما كان ذا صبغة محلية أو اقْليمية صرفة لتناولها أعلام بلد معين كتاريخ بغداد وتاريخ دمشق ، وبعضها اختص بمهن المترجمين أو بعض هواياتهم : كمعجم الشعراء،وطبقات الأطباء ، ومنها ما كان عاما كوفيات الأعيان و الوافي ،في حين اختار بعض المؤلفين بيئة زمنية محددة لا يتجاوزونها لكنهم يتحركون في فضاء مكاني مفتوح لا يستثنون فيه

رقعة أو إقليما. وكتاب يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر*أحد أبرز هذه الكتب التي اختار صاحبها أن يترجم للمعاصرين له شعراء وناثرين*ولا أدل على عمل مؤلفه فيه من عنوانه .

ولكل نوع من تلك الأنواع حسناته ومزاياه ، ولعل من أهم حسنات الترجمة للمعاصرين كونها تعد من أقوى الأسباب التي تؤدي إلى تدفق الترجمة واتصالها ، لسهولة تناول المادة لا لحداثتها فحسب رغم ما لذلك من قيمة- ، بل لعمق الصلة بها أيضا ، سواء تعلق الأمر بالآثار ،أو الأعلام مما يوسع نطاق الترجمة، وينميها أدبية كانت ، أو تاريخية .

و إذا كنا لا نستطيع أن نؤكد ما إن كان ذلك هو سبب تأليف الكتاب بتفطن مؤلفه لتلك الأهمية، فإن إعجابه الشديد بأعلام عصره لا يحتاج إلى تأكيد، وهو سبب وجيه أيضا للترجمة لهم. ولا أكون مبالغا إذا قلت إنه تجاوز الإعجاب إلى التحيز، بدليل أن أشعار المعاصرين عنده أفضل من أشعار المتقدمين ؛" لانتهائها إلى أبعد غايات الحسن ، وبلوغها أقصى غايات الجودة " [1]. ومحبته الشديدة لها هي التي حركت خوفه من ضياعها . فهذه الآثار لا يعيبها شيء حسبه " إلا أنها غير مدونة رغم نفاستها، وسهم الرزايا بالذخائر مولع" .[2]وهو ما حمله على تأليف الكتاب، وقد نص على ذلك بقوله :"وبقيت محاسن أهل العصر التي معها رواء الحداثة ولذة الجدة و حلاوة قرب العهد، وازدياد الجودة على كثرة النقد غير محصورة في كتاب يضم نشرها ، وينظم شذرها ، ويشد أزرها ولا مجموعة في مصنف يقيد شواردها ويخلد فوائدها وقد كنت تصديت لعمل ذلك" [3].

وقد مكنت المعاصرة الثعالبي من الاتصال بعدد غير قليل من أعلام عصره اتصالا مباشرا فأشار إلى ذلك في مختلف أقسام الكتاب ولا غرابة ، إذ كان كثير الأسفار معتمدا في حله وترحاله ملاقاة الأدباء ومساجلتهم الأحاديث فيروي انتاجهم ويرصد أحوالهم و القرائن اللفظية الدالة على ذلك كثيرة منها قوله : أنشدني، سمعت منه ، وعرض علي ، واستمليت منه .كتب لي بخطه ..ففي ترجمة أبي الفضل أحمد بن أحمد العروضي مثلا قال:" ومما أنشدني لنفسه في جمع أسماء الكواكب... " [4].

كما استعان بالرواية غير المباشرة لكثرتها وسهولة الظفر بها مقارنة بالمباشرة ، متوخيا في ذلك أقرب الطرق ، متوسلا بأهل المعني وخلص أصدقائه إلا إذا تعذر الأمر؛ قصد ضمان سلامة النقل وسلاسة اتصاله . ففي ترجمة أبي القاسم الدينوري اختار من رواة شعره على كثرتهم ابنه[5] ، وفي ترجمة علي بن أبي العلوي استعان بأخيه[6].

وفي حال غياب الأقارب لا يجد الثعالبي بدا من الاتصال بالأصدقاء المقربين ، لاسيما إن كانوا من المهتمين بالأدب وفنونه . ومن القرائن اللفظية الدالة على قربهم من المترجم لهم قوله: وكان قد عاشره ، وكان مختصا به، وكان شديد الاختصاص...ففي ترجمة أبو الثريا الشمشاطي مثلا قال" حكى المصيصي: كان أبو الثريا صديقي ، وكان تقد عاشره واستكثرت من شعره ...."[7].

وقد أورد الثعالبي مئة و خمسة وستين راويا وصفهم بالثقاة استعان بهم في تأليف مادته

كما أن المصادر المدونة التي وقعت بين يدي المؤلف يومئذ أدنت مادة الترجمة منه وعززتها ، وسهلت طريقها ، وهو ما لم يتيسر لكثير من المترجمين قبله ذلك أن حركة التأليف بلغت من التنوع و الكثرة في القرن الرابع الهجري ما لم يكن له سابق نظير[8].

ومع كل ما تقدم يلاحظ الدارس لكتاب يتيمة الدهر للثعالبي تفاوتا ظاهرا في مقدار الترجمة بين علم و آخر، ففي الوقت الذي خصص لبعض الترجمات عشرات الصفحات والأسطر لم يتجاوز في ترجمات أخرى بضع كلمات، بحيث لم تشفع لهؤلاء المعاصرة وما ترتب عنها، ولا حاجة الدارسين لمعرفتهم بوصفهم مغمورين.

ويمكن رد التفاوت الظاهر الذي اتصفت به بعض ترجمات الثعالبي سواء بإفراط أو وتفريط على امتداد الكتاب بما فيها التتمة* إلى باعثين اثنين: أولهما المكانة الأدبية المميزة للشخصية وثانيهما: نفوذها السياسي فالتفاوت في طولها لا يتعلق إذا بعدم تسويته بين شخصية أدبية مشهورة وأخرى مغمورة فحسب إذ الفارق في العناية يظهر أيضا بين شخصية نافذة أي تجمع بين السياسة والأدب وبين أخرى لا نفوذ لها .

أولا: مكانتها الأدبية

تناول كتاب اليتيمة عددا كبيرا من الشعراء بحيث قام المؤلف بعملية مسح واسعة داخل الإطار الزمني والمكاني الذي عناه ووفق الشرط الذي حدده فكان بذلك سجلا عامرا بالتراجم أثبت فيه كل من كان له اهتمام بالشعر قل أو كثر بصرف النظر عن موقف النقاد منه .

ويلاحظ دارس الكتاب أن المؤلف أطلق العنان لنفسه في تتبع الشخصية الأدبية الكبيرة غير مكترث بما يمكن أن يشغله حديثه عنها من مساحة لما تتسم به حسبه من تنوع و ثراء. ولأن فيها من عناصر الإغراء والإغواء ما يجعل التطويل فيها مستحقا بإرادة وبغير إرادة وليس المؤلف بدعا في ذلك فالمشاهير تكتب فيهم الأساطير كما يقال والشخصية الكبيرة متعددة الجوانب بطبيعتها .

على أن المؤلف كان متحللا من سلطة أي منهج يفرض عليه توزيع المادة في الكتاب ، و السير فيها على طريقة مخصوصة، فلا غرو بعد ذلك أن تأتي التراجم متباينة كتباين مراتبهم عنده ،فإذا فرغ من تناول العناصر التاريخية لمن يترجم له ، أخذ في الحديث عن تاريخها الأدبي والتنقيب عن التفاصيل المتعلقة بسيرتها العلمية، مستزيدا منها ما أمكنه ذلك ، قصد إبراز خصائصها التي تجعل آثارها ثمرة منطقية لها بالنظر إلى تاريخها، كما يجعلها مستحقة للمكانة التي تبوأتها.ولعله كان ينظر إلى ما يقوم به على أنه من بابإنصافها بوضعها في الإطار الذي يعكس شهرتها ويثبت تقدمها على أقرانهابصورة أو بأخرى .

ومن أمثلة من أطنب الثعالبي في عرض جوانب من حياتهم الأدبية علاوة عن العناصر التاريخية لشخصياتهم المتنبي ، لعلو مكانته في الأدب ، بحيث أوقف له المؤلف مائة وأربعين صفحة طغى فيها الجانب الأدبي طغيانا ظاهرا ، حتى ميزها عن غيرها من التراجم.

كما ظهر إسهابه واضحا في ترجمته لأبي إسحاق الصابي و إن بدرجة أقل من المتنبي بقدر ما بينهما من تباين في المكانة، فقد خصص له المؤلف ما يربو عن اثنتين وثمانين صفحة، تجاوز فيها حدود الكشف عن حياته الأدبية إلى الترف الفكري الذي لا غاية له إلا إجلاء مكانة من يترجم له بين أعلام عصره .[9]

كما حظي الأديب أبو بكر الخوارزمي الذي استعان به المؤلف في نقل عدد غير قليل من مرويات بعنايته بحيث خصص له ثماني وستين صفحة،وغير هؤلاء كثير من الذين كان لهم دور بارز في الأدب كأبي الفضل الهمذاني الذي اهتم به المؤلف غاية الاهتمام، وأبي الفتح البستي ، وابن نباته السعدي ...

ومن بواعث إطالة الترجمة عنده استكثاره من الاختيارات الشعرية بلا ضابط عدا مزاجه، حتى ليظهر الكتاب موضوعه العلم المترجم دون غيره لشدة تركيزه عليه، ثم إنه لا يقنع بعرض بعض النماذج من الأغراض كما يفعل نظراؤه من كتاب التراجم ، بل يضاعف اختياراته منها ليدلل على غزارة إنتاج أعلامه، كما كان يورد لهم القصائد الطوال، التي تستغرق عشرات الأبيات، وفي كثير من الأحيان لا يعرضها مشفوعة بالشرح ؛ ليبين من خلال عرضه لبضاعتهم طول نفسهم الشعري ؛ الذي يقوي قدرتهم على اتصال القريض كما في ترجمة أبي الطيب المتنبي .

على أن الثعالبي يلمس في بعض مختاراته الشعرية طولا فيعلل ذلك بأن حسن هذه المنتخبات هو الذي فرض عليه هذا ،وأغراه بطلب المزيد منها ، فنراه يقول مثلا في ترجمة أبي فراس الحمداني: "لقد أطلت عنان الاختيار من محاسن شعر أبي فراس، وما محاسن شيء كله حسن؟ وذلك لتناسبها، وعذوبة مشاربها، ولاسيما الروميات التي رمى بها هدف الإحسان، وأصاب شاكلة الصواب، ولعمري إنها كما قرأته لبعض البلغاء لو سمعته الوحش أنست، أو خوطبت به الخرس نطقت، أو استدعى به الطير نزلت[10]. "فجودتها تبيح له الاستكثار منها وهو حكم انطباعي في نهاية المطاف لأنه غير معلل صيغ بعبارات عامة تجعل الوصف الذي وصفها به تصلح له لغيره [11].

ولا يجد الثعالبي حرجا في تكرار بعض النماذج مثنى وثلاث ورباع ؛لجودة المكرر مع دلالة بعضها على أسلوب صاحبها كما فعل في ترجمة أبي إسحاق الصابي: "وقد كتبتها كلها لحسن ديباجتها، وكثرة رونقها " .وقوله في ترجمة السري الرفاء "على ذكر السري فإني كاسر عليه فصلا لفرط استحسان جودة وصفه وموافقته للموصوف" [12].

وإذا كنا نأخذ على الثعالبي مبالغته في حشد النصوص ؛ الذي ساهم في تورم بعض التراجم فإننا نقر بكشفها ولو من طريق خفي بعض ما يتمتع به أعلامه من مميزات وخصائص عقلية، ونفسية، بالإضافة إلى ما تنطوي عليه من محاورات ، وعلاقات ، وأحداث وحوادث إلى ما هنالك من عناصر تساهم مجتمعة في رسم صورة العلم الذي أثبته في كتابه بطريقة غير مباشرة، وكذا صورة العصر أعني الحياة الادبية في القرن الرابع الهجري.[13] كما أن قسما من هذه الآثار لاوجود لها في مصدر آخر غير كتاب اليتيمة ؛ لأن

عددا مهما منها استملاه مباشرة من أصحابه ، أو أخذه عن أقرب المقربين له، فأخرجها بذلك من الصدور إلى السطور، وأظهرها لمريديها وهي حسنة تعد للكتاب ومؤلفه وإن لم يقصدها .

على أن حشده لتلك النصوص في تلك الترجمات وإن خلى في كثير من الأحيان من الشرح فإنه لم يخل بالمقابل من بعض الملاحظات النقدية.سواء التي كان فيها ناقدا أو ناقلا لنقود غيره . ومعلوم أن تلك الملاحظات التي يبثها النقاد فيالكتب التي تقع بين أيديهم ، عامل مهم من عوامل إطالة النص موضوع الدراسة؛ لكثرة ما يعرض فيها من آراء ترمي إلى استنباط الأحكام أوالتدليل على صحتها ، بل لعلها كانت باعثا في ميلاد كتب جديدة تؤلف على هامش تلك المصنفات. وهولا يفعل ذلك كما يرى بعض الباحثين إلا حين يعرض لمن كثر خصومهم وأنصارهم وتشعبت فيهم الأقاويل [14].

لقد تناثرت في كتاب اليتيمة لمحات نقدية قيمة ، أهمها الموازنات إذ كانت المحك بالنسبة للثعالبي في إجلاء صورة من يترجم له. لأننا لانعرف أنفسنا كما يقول برونتير إذا كنا لانعرف إلا أنفسنا . ومن ثم دأب المؤلف على مقارنة شعر أعلامه بشعر معاصريهم، أو من سبقوهم.لا لينبه على تقدم من هو بصدد الترجمة له فحسب ، بل ليعرف بهم أيضا لأن الشيء بالشيء يعرف ، مع بعض التعليلات النقدية .

ومن القضايا النقدية التي تعرض لها الثعالبي في اليتيمة لاسيما في تراجم مشاهير الأدباء السرقات الأدبية ، التي لا يكاد يسلم منها شاعر من الشعراء ، فقد أشار إليها في كثير من التراجم بغرض كشف السارق من المسروق ، ووجوه السرقة وحدودها ، مع تعليق يسير له أو لغيره. كما ذيل عددا من مختارات أعلامه ببعض الأحكام النقدية دالا فيها على استحسانه، أو استهجانه لها.ومع وجاهة كثير من آرائه النقدية التي أبداها الثعالبي فيما وقع بين يديه من نصوص إلا أنها تعبر غالبا عن حس ذوقي فردي خالص " من العسير أن تبين أساسا نقديا له[15] . "

ولا يجد المطلع على ترجمة المتنبي في كتاب اليتيمة أدنى صعوبة في اكتشاف أن الموضوع النقدي يعد سببا أوعاملا مهما من العوامل التي ساهمت في إطالة تراجمه ، واتساع نطاقها في عموم شخصياته من ذوي المكانة وفي ترجمة المتنبي على نحو خاص وقد اعترف المؤلف بما حصل من تطويل فيها باعثه الأحكام النقدية بقوله:"وأنا مورد في هذا الباب ذكر محاسنه، ومقابحه، وما يرتضي، ويستهجن من مذاهبه في الشعر، وتفصيل الكلام في نقد شعره، وقد جمح بي القلم في إشباع هذا الباب، وتذييله وتصييره كتابا برأسه في أخبار أبي الطيب، والاختيار من أشعاره، والتنبيه إلى محاسنه، ومساويه[16] . "

والحق إن هذا الجهد النقدي الذي أنفقه المؤلف في هذه الترجمة بالذات لا يقارن به غيره، ولا غرو في ذلك ، فأبو الطيب المتنبي مما اختلف الرأي حوله ، وتعصب الناس له وعليه ، وتلك آية العظيم كما يقول العقاد. ومن ثم فقد وجدنا اهتمامات نقدية بدرجة أقل في عموم تراجمه. من ذلك ترجمته لأبي بكر، وأبي سعيد الخالدين، و الهمذاني و الصابي ...وغيرهم.

كما يمكن أن يكون عامل الإطالة الاستطراد، بذكر الطرائف أو القصص وقد وجدنا لها حضورا واسعا في عدد غير قليل من الترجمات، سواء التي أوردها المؤلف شعرا أو نثرا، ومثاله ما ذكر في ترجمة أبي الفرج الببغاء فقد أورد له الثعالبي قصة كاملة ساقها من أولها إلى آخرها استغرقت بمفردها حوالي تسع صفحات وقد اعترف المؤلف بطولها فقال:" وأنا أبدأ بسياق قصة له من عباراته وحكاياته، لم أسمع أطرف منها في فنها، ولا ألطف ولا أعذب، ولا أخف وإن كان فيها بعض الطول، والبديع غير المملول"[17] ثم ذكر القصة .

على أن القصص الذي اشتملت عليه بعض تراجم الكتاب ليس نثريا كله ، إذ أورد عددا منها شعرا ، ومثال ذلك ما ذكره في ترجمة أبي القاسم الحسن بن الحسن بن واسنة، بحيث عرض له المؤلف قصة شعرية وافية موضوعها دعوة طعام قام بها بدمشق، واصفا ما وقع له فيها من أحداث وحوادث غريبة، أخذ المؤلف يذكرها بكل تفاصيلها، محافظا على السرد القصصي فيها، متجنبا انقطاعه رغم ما اتصفت به من طول، بحيث أخذت من الكتاب عشر صفحات،على أن المؤلف لا يرى بأسا من التطويل فقد قال صراحة :" لقد أحسن في هذه القصيدة غاية الإحسان، وأبان فيها عن مغزاه أحسن بيان، وتصرف فيها وأطال، وأمكنه القول فقال:"إذا تخلص الشاعر عند الإطالة، و الوصف هذا التخلص..... فهو لا يدرك غوره، ولا يخاض بحر[18].

كما ذكر المؤلف في ترجمة أبي دلف الخزرجي الينبوعي قصيدة ساسانية تشبه المقامة الساسانية عند بديع الزمان الهمذاني من حيث المضمون، بتناولهما أخبار الشطار ووصف مغامراتهم وحيلهم. وقد أخذت هذه القصيدة بمفردها مع شرح بسيط للمؤلف ما لا يقل عن عشرين صفحة من مجموع صفحات الكتاب .[19]

وميل الثعالبي إلى سوق بعض القصص أو الطرائف التي وقعت لمن يترجم لهم بقدر ما كشفت عن شخصيات من يتحدث عنهم ، أماطت اللثام بالمقابل عن جانب مضيئ في شخصيته المطبوعة على الأريحية. ولعل الثعالبي كان مستصحبا في انتقاله من جو إلى آخر حاجة قارئه إلى التنويع دفعا للملل ، وعنت التركيز." ذلك أن في طباع البشر محبة الانتقال من شيء إلى شيء و الاستراحة من معهود إلى مستجد" [20].

ومع نزوعه إلى التطويل في تراجم المشاهير من الأدباء إلا أنه لا يسلك المسلك نفسه في تراجمه للمغمورين منهم إلا ما ندر. كما في ترجمة أبي عبدالله الحسن بن الحجاج بحيث طوف بنا المؤلف بين أخباره ، وآثاره على امتداد واحد وثمانين صفحة لا يخفى فيها إعجابه بملحه و طرائفه وإن كانت مشوبة ببعض المجون.[21]

فالأصل إذا في تراجمهم الايجاز والاختصار، فقد تضمن الكتاب أكثر من ترجمة لتلك الطبقة يظهر فيها مجافاته للتطويل. من ذلك قوله في ترجمة أبي القاسم على بن محمد الاسكافي: " ورسائله كثيرة مدونة سائرة في الآفاق ولا يسع هذا الكتاب إلا النموذج الذي يجري الغرر و الأمثال." [22] وفي ترجمة أبي القاسم

العامري قال وله شعر كثير اقتصرت منه على قوله .."[23] وفي ترجمة ابن هندو قال " وله رسالة غزلية لا يتسع الكتاب إلا لهذا الفصل منها".[24]

ثانيا : النفوذ السياسي

و إذا كنا نقبل بشيء من التحفظ أن الثعالبي كان موضوعيا في تراجمه للشخصيات الأدبية الخالصة بصرف النظر عن موقفنا من تفاوتها ودواعيه، فإننا نراه يميل إلى الذاتية في تراجمه المتعلقة بذوي السلطان من الأدباء، ولا يمكن أن يكون ذلك مجردا من الأسباب فإن لم يكن ذلك بغرض إرضائها فلمسايرتها على الأقل. لاسيما وأن الكتاب ألف تقربا و إرضاء لها ولا غرو ، فبعض العلماء والأدباء كانوا و لايزالون يقدمون في سبل ترضية من يوالون أنفس ما تجود به القرائح والعقول . و مثل هذا الكتاب في واقع الأمر من أفضل ما يتقرب به إليهم لتأريخه للمعاصرين. أولا: لِما فيه من تخليد لهم بوصفهم ساسة ذلك العصر، وثانيا: لأن بعضهم ذكروا فيه كأدباء ومن هؤلاء الصاحب بن عباد و المكيالي ابن العميد و... فقد أجراه مؤلفه كما أشار إلى ذلك في المقدمة " مجرى ما يتقرب به أهل الأدب إلى ذوي الأخطار و الرتب "[25]. والثعالبي في الحقيقة صاحب سوابق، فقد أهدى كتابه ثمار القلوب في المضاف و المنسوب لأبي الفضل المكيالي. و لطائف المعارف للصاحب بن عباد [26].وليس المؤلف بدعا في ذلك فكثير من المؤلفات ألفت للسلاطين يومئذ: كالإيضاح و التكملة ألفه أبو علي الفارسي لابن العميد، وجمهرة اللغة ألفه ابن دريد للمكيالي...[27]

ويقدم الثعالبي بين يدي تراجمه لهذه الطبقة ـ إلى جانب ما ذكرنا مما كان موضوع التطويل في نظيرتها ـ حديثا وافيا عن عنايتها البالغة بالأدباء باحتضانها لها في مجالسها ، وانفاقها السخي عليها حتى أجروا عليهم الجرايات[28] و أسبغوا عليهم جزيل النعم تقديرا وتوقيرا .على أن الثعالبي كان يستشعر رعايته الزائدة لهم مبررا تصرفه هذا بأن باعث العناية بهم الفضل لا السلطان وأن ذكره لهم وحديثه فيهم هو أقل ما يجازيهم به على صنيعهم هذا .

وحرص تلك الطبقة على حضور الأدباء و العلماء مجالسهم كان من التقاليد السلطانية يومئذ فما أن يبسط أمير أو سلطان نفوذه على إقليم حتى يرسل في طلب أدبائه طوعا أو كرها .[29]

كما خصص الثعالبي مساحة وافية من ترجماتهم للإشادة بمشاركاتهم الأدبية الخصبة في الحوار الثقافي الذي عقدوه في نواديهم ، ولذلك وجدنا الثعالبي يسهب في ترجمة الصاحب ابن عباد مثلا حتى تجاوزت ترجمته له مائة وبضع عشرة صفحة تناول فيها المؤلف إلى جانب ما أثبته لهامن عناصر الترجمة التاريخية ـ كشخصيةأدبية مستحقة لمكانتهاـ الرعاية المميزة التي كان يكلأ بها تلك الطبقة مما جعلها تتهافت على مجالسه وتتنافس في إرضاءه . وحين تعرض لآثارها لم يقنع المؤلف بما ذكر لها من شواهد شعرية دالة على ما يشير إليه من أفكار بل أخذ يحشد له المختارات حشدا حتى تجاوزت بمفردها مائة وثلاثين بيتا من الشعر وليس هذا فحسب إذ لم يجد حرجا في إثبات المزيد فقال "وإذا جدت ما يصلح للإلحاق بها ألحقته

بمشيئة الله تعالى" .وماذا بعد هذا التصريح؟ فليس هناك عدد محدد من المختارات أو الصفحات، فالأمر مرتبط بما يصلح للإلحاق عنده ، بل إنه مستعد لمخالفة شرط الكتاب إذا اقتضى الأمر؛ كتعلقه بذوي السلطان فقال في مقدمة الكتاب " فإن وقع في خلال ما أكتبه البيت او البيتين مما ليس من أبيات القصائد ووسائط القلائد فلأن الكلام معقود به ، والمعنى لا يتم دونه و لأن ما يتقدمه أو يليه مفتقر إليه ، أو لأنه شعر ملك ، أو وزير ، أو رئيس خطير، ...و إنما ينفق مثل ذلك بالانتساب إلى قائله لا بكثرة طائله " [30]

ومن الوزراء الذين كان لهم ذكر واف في كتاب اليتيمة المهلبي.إذ لم يدخر الثعالبي جهدا لإبراز مكانته الأدبية على كثرة ما ذكر فيها بل تجاوز ذلك إلى كشف النقاب عن عظيم تقديره للعلماء و الأدباء ووصف مجالسه التي كانت تزدحم بهم ومشاركاته الواسعة في ما يدور بينهم من أحاديث حتى تخطت ترجمته له مائة صفحة. وكذلك فعل في ترجمة ابن العميد، و الصاحب بن عباد ،وأبي الفضل المكيالي،وسيف الدولة الحمداني ...وغيرهم من أعلام تلك الطبقة.حتى أخذ عنه بعض الدارسين إسرافه وتزيده في ما ناله الكبراء و الأمراء من نعوت وصفات بحق وبغير حق [31].

أما غير البارزين فيهما (السياسة أو الأدب) فلم ينالوا مانال نظراؤهم من التبجيل والتطويل إذ اقتصر في تراجمه لهم على اللمحة السريعة التي لم تتجاوز أسطرا معدودة ، كما في ترجمة الوزير أبي غانم المالقي ، والوزير أبو وهب عبد الوهاب بن محمد والوزير أبو المظفر عبد الرحمن بن بدر.

وإذا كان بعض النقاد عدوا ذلك عيبا من عيوب الكتاب فإن الدكتور أمجد طرابلسي يخالف بعض منتقدي الثعالبي في قصر عدد كبير من ترجماته معتبرا ذلك جهدا عظيما يحمد لصاحبه ، ويزيد الكتاب شأنا موضحا بأن " قيمة اليتيمة ليست في تلك التراجم المطولة لمشاهير الشعراء، والأدباء لأن أخبار هؤلاء ، وآثارهم معروفة مشهورة، ويمكن الاطلاع عليها من خلال كتبهم، ودواوينهم، وإنما قيمة الكتاب في مئات التراجم القصيرة التي للشعراء المغمورين الذين عاشوا القرن الرابع في مختلف بقاع العالم الإسلامي".[32]

ومثلما كانت الطرائف باعثا من بواعث طول تراجم المشاهير من الأدباء كانت بالمقابل سببا في طول تراجم ذوي السلطان منهم من ذلك ما أورده الثعالبي في ترجمة الصاحب بن عباد بعد أن ذكر كثيرا من الغرر و النكت فقد أورد ما نقله الهمذاني فقال :" كان واحدا من الفقهاء يعرف بابن الحضيري يحضر مجلس الصاحب ليلا فغلبته عيناه مرة وخرج منه ريح له صوت فانقطع خجلا عن المجلس الصاحب فقال الصاحب أبلغوه عني :

يا بن الحضيري لا تذهب على خجل // لحادث منك مثل الناي و العود

فإنها الريح لا تسطيع تحبسها // إذ أنت لست سليمان بن داوود[33]

كما كان النسق التعبيري الذي تعاوره المؤلفون، ووشوا به كتبهم يومئذ عاملا هاما من عوامل الإطالة والإسهاب في التأليف؛ لقيام أساليبهم على الترادف والإطناب، وتكلف السجع والاحتفاء بالمحسنات البديعية،[34]مع إطالة المقدمات، وتنويع البدء والختام ، والميل إلى التفصيل والإطناب وكذا الغلو

والإكثارمن الألقاب والدعاء ، فهذا كله ولا شك ساهم في إطالة الكلام وإن لم يقتض معناه كل هذه الهالة من العبارات والألفاظ. والثعالبي بوصفه أحد مترسلي ذلك العصر لم يشذ عن الطوق " فقد كان يؤثر السجع ولا يكاد يتركه إلا في أحوال قليلة و لكن سجعه على كل حال مقبول" [35].

ويأخذ الدكتور أحمد أمين على الثعالبي افتنانه بالصنعة اللفظية، وانشغاله بها عن التحليل النفسي للشاعر وتحليل شعره " حتى إن الترجمة للشاعر يمكن رفعها ووضعها في ترجمة شاعر آخر"[36] ويخالف بعض النقاد وجهة النظر هذه بأن الثعالبي لاينزع هذا المنزع إلا عندما تكون نفسه مستعدة لتنميق الانشاء إذ ذاك لا يكون مشغولا بتقديم الصفات الحقة لمن يترجم لهم إنما ينشغل بعرض مواهبه وقدراته على التصرف في فون الكلام .[37]ومن ثم يتفنن في الصور التعبيرية أثناء تعريفه بالشعراء إذ " يعتمد أجمل التعابير وليس ذلك بمستغرب عنه فقد شغل بجمع طرائف التعبير حتى ليمكن الحكم بأن أخيلة غيره تسبق إليه من حيث لا يحتسب " .[38]

ويرى ابن الأثير أن هذا المنهج الذي سلكه المؤلف في تراجمه لم ينشأ عن قصور في الحس التاريخي عنده فهو كما هو معروف من كبار مؤرخي عصره وله في التاريخ العام باع طويل كما عبرت عن ذلك مؤلفاته المتعددة بحيث لم يكن أساسا في اللغة فحسب ، بل وفي الأخبار ، و أيام الناس . لكنه ارتبط بمنهج متعارف عليه في كتابة السير .[39]

إن شغف الثعالبي بالمشاهير من ذوي المكانة الأدبية سواء الذين تلبسوا بالسياسة أو لم يتلبسوا بها وإحساسه الشديد بحقهم عليه في العنايةكان وراء إسرافه في ذكرهم وبالمقابل كانوا سببا فيما مس ترجمات المغمورين من تقتير وهو ما عده بعض الدارسين جانبا من الضعف في ذلك الكتاب النفيس وكأن غاية الكتاب بالنظر إلى تلك الترجمات هي تقييد أسماء الأعلام لا لذكر الأخبارأو الآثار.

---

الهوامش :

* وهو أهم كتبه و للثعالبي مؤلفات كثيرة احصاها بعض المؤلفين بمائة وستة كتاب بين مطبوع ومخطوط من النفع والقيمة و الخصوبة بمكان انظر مناهج التأليف عند علماء المسلمين مصطفى الشكعة ، ط، دار العلم للملايين بيروت لبنان 1989 ،ص: 288 وانظر كارل بركلمان ، ج:5، ص: 187

* هناك كتب أخرى ترجمت للمعاصرين كخريدة القصر و جريدة العصر ، للعماد الأصفهاني و الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسام ودمية القصر وعصرة اهل العصر للباخرزي ، وزينة الدهر في لطائف أهل العصر للحضيري انظر المكتبة العربية عمرو موسى باشا وآخرون ،منشورات جامعة دمشق سوريا 1999ص 188 ...

1يتيمة الدهر : أبو منصور الثعالبي ، تح :مفيد قميحة ، ط1، دار الكتب العلمية ، ج1 ،ص: 25

2المصدر نفسه ج: 1، ص: 26

3نفسه ، ج: 1، ص: 26

4المصدر السابق ،ج : 5 ، ص: 205

5نفسه ،ج: 4 ، ص 255

6نفسه ، ج :4 ، ص484

7نفسه ، ج: 5 ، ص: 86

8 تاريخ الأدب العربي ، شوقي ضيف ،ط6 ، دار المعارف القاهرة د.ت ، ج3، صص109

*هو ذيل على الكتاب استدرك الثعالبي فيه ما أمكنه أن يستدرك مما فته ووعد بإلحاقه من مادة لم تحضره وقت تأليف الكتاب .انظر التتمة ، ج: 5 ، ص: 8

9 اليتيمة ، ج:2 ، 287

10المصدر السابق ، ج : 2 ، ص362

11ظهر الإسلام أحمد أمين دار الكتاب العربي بيروت د. ط 1969، ج: 2 ، ص: 122

12اليتيمة ، ج : 1 ، ص: 112

[13] المكتبة العربية عمرو موسى باشا وآخرون ،منشورات جامعة دمشق سوريا 1999ص 188

14النثر الفني في القرن الرابع الهجري زكي مبارك دار الجيل بيروت ( د .ط)، ج:2 ، ص:228

15تاريخ النقد العربي عند العرب ، احسان عباس ، دار الثقافة بيرو لبنان ، 1981، ص374.

16 اليتيمة ، ج: 1 ، ص141

17انظر اليتيمة ، ج: 1 ،: ص 294

18 المصدر نفسه ،ج: 1 ، ص424

19المصدر سابق ،ج:3 ، ص416

20النثر الفني ، زكي مبارك ،ج:2 ، ص: 228

21اليتيمة ،ج 3 :ص 35

22 نفسه ج: 4 ص: 110

23نفسه ج: 4 ، ص: 509

24نفسه ج: 5 ، ص: 164

25 نفسه : ج1 ، ص 27

26تاريخ الأدب العربي ، كارل بركلمان مكتبة الآداب دار الاوبرا القاهرة ، ج 5 ، ص: 195

27 ظهر الاسلام أحمد أمين ،ج: 1 ،ص: 247

28اليتيمة ، ج: 1 ، ص: 294

29تاريخ الإسلام السياسي الديني الثقافي الاجتماعي حسن إبراهيم ط6 مكتبة النهضة المصرية القاهرة مصر ،د.ت ج:3، ص399

30انظر اليتيمة ، ج: 1 ،ص29

31النثر الفني ،زكي مبارك ج،2، ص: 229

32 نظرة تاريخية في حركة التأليف عند العرب في اللغة و الأدب، ط4 ، مكتبة دار افتح ،دمشق سوريا 1969

*وحكي أن مثل هذا الأمر حدث للهمذاني في مجلس الصاحب فخجل وقال صرير التخت، فقال الصاحب أخشى أن يكون صرير التحت، ويقال أن هذه الخجلة كانت سببا في مفارقته لتلك الحضرة وخروجه من خرسان.

34مناهج التأليف عند علماء العرب و المسلمين ، مصطفى الشكعة ، دار العلم للملايين ، ط5 بيروت لبنان ص145

35النثر الفني في ق 4 هـ ج:2، 448

36ظهر الإسلام أحمد أمين ج: 2 ، ص:122

37النثر الفني ، زكي مبارك ، ج: 2 ، ص: 229

38نفسه ج : 2 ،ص 230

39الكامل في التاريخ لابن الأثير، ط3، دار الكتاب العربي ، بيروت لبنان 1980ج: 3 ص 112